السياسة العربية في شهر

في غمرة أعراس الوحدة

فتحنا النار على الخونة !

بقلم محمد الفرّاش

طالما قيل بحق ان دمشق قلب العروبة النابض ، لكن لا شك ان هذا القلب لم ينبض يوما بقوة وفرح كما فعل في اواخر شباط واوائل اذار من هذه السنة ..

فما ان ظهرت نتائج الاستفتاء الشعبي في سوريا ومصر على الجمهورية العربية المتحدة وانتخاب جمال عبدالناصر اول رئيس لها ، حتى غمرت الافراح دمشق والقاهرة ، بل كل عاصمة عربية ، بل كل مدينة ودسكرة وقرية . وكان الفرق الوحيد ان الافراح اتخذت في دمشق والقاهرة شكلا تظاهرات ومهرجانات كبرى ، لان الدولة بالطبع من الشعب ، وليس من ضغط حكومي يمنع او يخفف من مظاهر البهجة كما حدث في اقطار عربية اخرى .

وامتدت الافراح في دمشق على الاخص ، لان الرئيس عبد الناصر قصدها ، ومكث فيها اياما . فشهدت عاصمة الامويين من الحماسة الشعبية ، ومظاهر التأييد لرئيسها الجديد — العربي الاتي من مصر — ما لم تشهده عبر تاريخها الطويل الحافل بالامجاد ، ودهش المراسلون الاجانب ، لا سيما الاميركان ، لهذه الموجة الطاغية من الحماسة ، من هذه الصوفية السكرى بالزعيم المحرر ، بالزعيم الموحد ، فاذا دمشق على بكرة ابيها ، تترك بيوتها ودور عملها ، وتزحف لتحية الرئيس عبد الناصر ، واذا ساحة قصر الضيافة حيث نزل الرئيس ، والشوارع المؤدية اليها ، تفص بمئات الالوف . كلهم يريد ان يجتلي طلعة الرئيس ، وكلهم يهتف بحياته ، وحياة الوحدة العربية التي تحققت على يديه ، وحياة الرئيس شكري القوتلي الذي أسهم اعظم اسهام في تحقيقها ، والذي اطلق عليه لقب المواطن العربي الاول ، تقديرا لجهاده وجهوده .

سبعة ايام بلياليها ، ظلت دمشق تعيش تحت شرفة قصر الضيافة ، والرئيس يطلع الى الشرفة عدة مرات في اليوم ، ويخطب مثنى وثلاث ورباع . ولو لم ينصح الرئيس القوم بالعودة الى اعمالهم ، لانه هو ايضا عليه ان يعمل ، لاستمرت هذه الهستيريا الشعبية اسابيع ...

لعلنا لم نبالغ اذ قلنا : هستيريا . فهذا الشعب العربي العريق ، الذي تسنم ذرى المجد في حقبة طويلة من تاريخه ، ثم اخنى عليه الدهر . فطوى صفحاته الذهبية والقى به في دثار العبودية والجمود والانحطاط بضعة قرون ، هذا الشعب الذي هب منذ نصف قرن يكافح وينافح عساه ينتزع حريته ، ويستعيد وحدته ، وعزته ، رأى في الثائر المصري الشاب ، معقد آماله . رأى فيه القائد الذي يعبر عن امانيه ، والزعيم القادر على تحقيق احلامه واهدافه ، فمحضه الولاء ، وأخلص له الحب . ثم رأى بالفعل ان الوحدة العربية تتحقق ، تتحقق اسرع مما كان ينتظر ، فجن جنونه من الفرح ، وبحت حناجره من الهتاف ، وورمت اكفه من التصفيق .

مواكب اللبنانيين

ولم يقتصر هذا الزحف المقدس ، هذا الحج الى قصر الضيافة على اهالي دمشق وحدها ، ولا على اهالي سوريا كلها .. بل تعداه الى لبنان. فقرب لبنان من جهة ، ونظامه الحر من جهة ثانية ، مكنا اللبنانيين من التعبير عن عواطفهم ، اي الشيء الذي لم يتح للاردنيين ولا للعراقيين مثلا ، فكبت الاولون افراحهم في قلوبهم ، وتعزى الاخرون ببرقيات التهنئة ...

زحف اللبنانيون بالمئات والالوف الى قصر الضيافة في دمشق ، وحيوا الرئيس عبد الناصر ، وبايعوه ، وخطب هو في وفودهم اكثر من مرة ، مؤكدا لهم ان وحدة القلوب قائمة بين الجمهورية العربية المتحدة ولبنان ، فلا انفصام لها ، ولا راد لها ... وان الجمهورية العربية سند للبنان ولبنان لها سند .

واعتبر الكثيرون هذا الزحف التلقائي من لبنان الى دمشق ، بمثابة استفتاء غير رسمي ... استفتاء اكد فيه اللبنانيون تعلقهم بالمبادىء التي يمثلها الرئيس عبد الناصر ، وحرصهم على التعاون — اقصى التعاون — مع ركب العروبة التقدمي المتحرر ...

حكومة لبنان

ولم تستطع حكومة بيروت — المعادية قلبيا لهذا الاتجاه — ان تقف في وجه التيار الشعبي الجارف . فتظاهرت ببعض الرضى ، وارسلت برقيات تهنئة الى رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، وابرقت مهنئة في الوقت نفسه الى بغداد وعمان .

ثم قامت الحكومة بمناورات اخرى . فجعلت من معركة تجديد الولاية للرئيس شمعون ، ردا على مظاهرات الابتهاج بالجمهورية العربية المتحدة ، وراح فريق من الاتباع والمأجورين يرفعون صورة الرئيس شمعون في بعض الاحياء ، ردا على رفع صور الرئيس عبد الناصر ، وألقيت في بعض المعابد خطب تؤكد الحرص على الكيان اللبناني وبذل الدماء (كذا) في سبيل صيانته ... كأن كيان لبنان في خطر من قيام الجمهورية العربية المتحدة . والواقع ان لا خطر على لبنان الا من سياسة الانحراف ، وجره الى الاحلاف عن طريق مبدأ ايزنهاور ، وما على شاكلته لبعث الاستعمار وترميم ما تبقى منه .

ولما كان الرئيس شمعون هو مدشن سياسة الانحياز هذه ، وهو المتمسك بها الحريص عليها ، فمعركة تجديد الولاية له ، ستكون فاصلة. وهي التي ستقرر موقف لبنان الرسمي ، اما بقاء استمرار نقمة الشعب التي قد تتحول في كل لحظة الى انفجار .. واما عود الى الحياد وتعاون صادق مع الجارة الكبرى ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، ينسجم مع ارادة الاكثرية ، ومع مصالح لبنان الاساسية .

ومن يعرف اوضاع لبنان الداخلية ، بصرف النظر عن مناخمته للجمهورية العربية المتحدة دون غيرها ، يجزم ان معركة التجديد لا يمكن ان تنتهي الى فوز ، يفرض على السواد الاعظم . ولقد كان ذلك ممكنا في ظل نظام ارهابي كالذي يسود الاردن والعراق مثلا ... لكن الجميع

يعرفون ان لبنان ، من حيث تركيبه الداخلي ، لا يتحمل اي نوع من انواع الديكتاتورية والارهاب .

وهناك عملية تهرب او تهريب يستطيع العهد الحالي ان يلجأ اليها لضمان الاستمرار لسياسته المنجازة . وذلك بأن يرشح الرئيس شمعون من يخلفه ويكمل سياسته . وهذا يخفف من حدة المعركة ، ويقضي على نتائجها الفورية السيئة ، لكنه لا يحل المشكلة الاساسية ، ولا يقضي على الوعكة الكيانية التي تنتاب البلد منذ سنة ونيف . ولا بد من استئناف الصراع الى ان تتحقق ارادة السواد الاعظم .

هذا مع العلم ، بأن مجرد انسحاب الرئيس شمعون ولو ظاهرا من الميدان ، يكون بمثابة نصر كبير للمعارضة ، يشد ازرها ، ويقوي ساعدها ، ويمهد لها الطريق نحوانتصار حاسم .

دستور الجمهورية العربية المتحدة

على هامش اعراس الوحدة ومباهجها ، كان الرئيس عبد الناصر وصحبه يعملون . وقد عملوا في اسبوعين اشياء كثيرة وخطيرة .

اصدروا دستور الجمهورية الموقت ، وميثاق الدول العربية المتحدة (الميثاق الفدرالي) ، ووقعوا مع اليمن وثيقة انضمامها الى هذا الاتحاد، وعين الرئيس نوابه ووزراءه في الاقليمين المصري والسوري الخ ...

والجدير بالذكر ان دستور الجمهورية العربية المتحدة دستور ديمقراطي تقدمي . وأبرز ما فيه انه اول دستور لدولة عربية في العصر الحديث ، لا ينص على دين الدولة او دين رئيس الدولة . وقد جاء في احدى مواده ان مواطني الجمهورية متساوون في الحقوق والواجبات ،دون تمييز في الجنس او اللغة او اللون او الدين .

وانها لخطوة مباركة . فالدين دستور سماوي ، يقرر علاقة الانسان بالله ، بينما دستور الدولة دستور دنيوي يقرر علاقة المواطنين بعضهم ببعض .. والدولة الديمقراطية الحق تفصل بينها وبين الدين ، وتبيح حرية المعتقد لجميع مواطنيها ، ولا تفرق بينهم على اساسه .

والعجيب ان الذين طالما تذرعوا بنص الدساتير القديمة في سوريا ومصر على الاسلام دينا للدولة ، حجة للدس والتفرقة والتمسك بأهداب الاجنبي ... اصابهم البكم امام النص الجديد ، فبلعوا السنتهم واكلوا اقلامهم ، لم يلعنوا ولم يباركوا ، كأن الامر عادي ، وكأنه ليس تطورا خطيرا يستحق الذكر والتنويه ...

نحن نعتقد ان المسألة اكثر من تطور . انها ثورة ، ما كان غير عبدالناصر ان يقدم عليها ، ولئن استطاع الاقدام عليها بسهولة ، فلانه رجل كبير آمن به الشعب ، ووثق بايمانه المتين .

ميثاق الاتحاد الفدرالي

جاء هذا الميثاق تجديدا لشباب ميثاق الجامعة العربية الذي اشرف على الافول ، تجديدا لشبابه واستدراكا لنواقصه ، بحيث يكون اجدى في توجيه الصف العربي ، مع احتفاظ كل دولة تنضم اليه بشخصيتها الدولية ودستورها ونظامها الداخلي ، ولا يقتضيها الاتحاد الا توحيد السياسة الخارجية ، وتوحيد الدفاع . وهذان امران كانا مطلوبين ضمنا في ميثاق جامعة الدول العربية ، لكن ميثاقها لم يحسن ضبطهما بصراحة ووضوح .

وذهب الميثاق الاتحادي الى ابعد حد في تغليب الاخوة ، فساوى بين الجمهورية العربية المتحدة التي تعد سبعة وعشرين مليونا وبين اليمن التي لا تعد اكثر من ثلاثة ملايين ... بل وبين اصغر دولة عربية تريد الانضمام في المستقبل . ذلك ان مجلس الاتحاد الاعلى يتألف من رؤساء الدول المتحدة فدراليا وهم يتداولون رئاسة الاتحاد . كما ان مجلس الاتحاد يتألف من اعضاء متساوين في العدد لكل دولة ، ولا تؤخذ القرارات الا بالاجماع .

بمعنى ان لبنان لو دخل هذا الاتحاد مثلا ، لكان له في مجلس الاتحاد الذي يرسم سياسته العامة اعضاء مساوون في العدد لممثلي الجمهورية العربية المتحدة .

وحق لرئيس جمهوريته ان يجلس على قدم المساواة مع الرئيس عبدالناصر في مجلس الاتحاد الاعلى ، ثم ان يرأس الاتحاد مرة كل اربع سنوات او خمس ..

ولئن ساوى الميثاق الاتحادي بين اعضائه في الحقوق ، فانه لم يلق عليهم الاعباء نفسها . وهكذا رأينا الاتفاق يتم بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن على ان تدفع هذه ثلاثة في المائة فقط من النفقات في ميزانية الاتحاد مع افادتها افادة كاملة من ميزانية الواردات .

الملكيات ...

على ان اهم ما جاء في هذا الميثاق ، ان الجمهورية العربية المتحدة لا تكيد للملوك الصالحين ، ولا تعمل على هدم العروش ، فاتحاد الدول العربية يتسع للجمهوريات والملكيات والامارات وكل نظام يرتضيه اهل القطر العربي المعني ، شريطة ان يعمل الجميع لخير العروبة .

وهكذا اتحدت احدث جمهورية عربية ، مع اقدم مملكة عربية ، دون ان يؤثر ذلك في جوهر الموضوع .

ونحسب ان الميثاق الاتحادي بدد كثيرا من اوهام بعض الملوك ،اولئك الذين اقنعتهم حاشية السوء ، او اقنعوا انفسهم ان الجمهورية العربية المتحدة والرئيس عبدالناصر بالذات يستهدفان القضاء على العروش ، لانها عروش فقط . ولو استمر الملك حسين في سياسة التحرر الذي اتبعها فترة من الزمن ، لامكنه ان يدخل الاتحاد ويحتفظ بعرشه ، ويكون رئيسا مدللا للاتحاد عندما يأتي دوره ..

ان العروش الصالحة لن تكون ابدا هدفا للتهديم ، اما العروش الفاسدة المتعاونة مع الاستعمار ، فالخطر عليها داهم طبعا ، لان سوسها نفسه هو الذي ينخرها .. .

اليمن العاقلة

ولقد ضربت اليمن مثلا رائعا في الحكمة ، اذ كانت اول دولة عربية تنضم الى الاتحاد . فقد حصلت على ضمانة قوية بصيانة حدودها ، ومجابهة سائر مناورات الاستعمار التي تستهدفها منذ زمن طويل .

وأهم من ذلك ، انااليمن مهد الحضارة العربية الاول ، في حرصها على الاستقلال ، سدت ابوابها باحكام دون الحضارة الحديثة على الاطلاق ، خشية ان يندس السم في الدسم ، ويتسلل الاستعمار مقنعا بلثام هذه الحضارة ...

واليوم ، ستدخل الحضارة الحديثة بلباس عربي ، من مصر وسوريا، بلباس الاخوة الصادق ، وتعمل على انهاض اليمن ودفعها قدما في معارج الرقي. ولها من تفتح ابنائها ورجولتهم ومواردها الطبيعية ما يؤهلها لان تنهض بسرعة وتلحق بالركب .

صراع سافر

في اعراس العرب العادية ، يحدث احيانا ان رصاص العرس يصيب خطأ احد الحضور .. وقد يغتنم احدهم فرصة العرس فيردي خصمه قتيلا متذرعا بالخطأ ...

وأعراس الوحدة العربية لم تتته دون حادث ، لكن الخطأ هذه المرة جاء من الذين لم يشتركوا في العرس ، من الذين ساءتهم عظمة العرس وجلاله وبهاؤه ، فراحوا يرشقونه بالحجارة ...

بل ان بعضهم ـ ويا للفظاعة ـ عمل في الخفاء على تحويل العرس الى مأتم ، فدبر مؤامرة لاغتيال الجمهورية العربية المتحدة في شخص قطبها وزعيمها العظيم .

لذلك كان طبيعيا ومن قبيل الدفاع المشروع عن النفس ، ان اصحاب العرس ، ردوا التحية بمثلها ، ردوها على وضح النهار ، وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، لا في جنح الظلام ولا في الخفاء ... وارسل الرئيس عبد الناصر لعناته صريحة مباشرة على الخونة والمارقين من عملاء الاستعمار واعوانه ، فلفظ عليهم حكمه القاسي ، مؤكدا ان شعوبهم هي التي ستنقض عليهم ، وتجعلهم عبرة ن اعتبر.

وهكذا ، رأينا الجمهورية العربية المتحدة التي كانت وليدة ثورة ونضال، تستهل عهدها بنضال جديد ، نضال سافر علني . ضد المتعاونين مع الاستعمار والصهيونية العالمية حليفة الاستعمار ، واتضح بجلاء ان الصراع الذي كان يقوم بين رجالات مصر وسوريا من جهة ، وحكام العراق والاردن والسعودية ولبنان ، في شيء من التحفظ ، وشيء من التخفي ، هذا الصراع قد خرج الان الى النور . ولم يعد في الامكان التراجع . فاما ان تنتصر الجمهورية العربية المتحدة بكل ما تمثل من تقدم اكيدوتحرر تام ،فيتوحد العرب في ظلها على هذه المباديء التي تعيد اليهم حريتهم كاملة ، وخيراتهم كاملة ، وتدفعهم قوة خيرة جديدة في العالم ، تعمل للبناء والحضارة والسلام ... واما ان تنتصر الرجعية والتعاون مع الاجنبي في المعسكر الاخر .. فيصاب العرب بنكسة جديدة ، ويضطروا الى استئناف الكفاح من الالفباء او ما يشبه الالفباء ...

ان الموقف لم يعد يحتمل المهادنة او المهاودة او التهرب . فاما ان تكون في معسكر الحق ، واما ان تكون في معسكر الضلال ..

ولما كان الشعب العربي في كل قطر ، وقد استيقظ وادرك ووعى ، يتضامن مع الجمهورية العربية المتحدة ، يهلل لها ، ويؤمن بقادتها ، وعلى رأسهم ، ابو الثورة العربية الكبرى جمال عبد الناصر ، فلا بد ان ينتصر معسكر الحق والخير ، وان ينتصر ان شاء الله باسرع مما يتصور المنحرفون والمتخاذلون والخونة وزبانية الاستعمار والصهيونيية .

جسم نقي قوي

ان الصهيونية وهي الد اعداء العرب ، واكبر خطر عليهم كأمة ودولة ، لم تستطع اقتحام الجسم العربي ، الا يوم كان هذا الجسم ضعيفا مفككا ، تتأكله الخيانة والانخذالية والفرقة . وهي كجرثومة غريبة ، لا تستطيع البقاء فيه ، الا اذا بقي على حاله من الضعف وضآلة المناعة، اما اذا اشتد ونقي من ادرانه ، وسلم من ادوائه ، فسيطرد الجرثومة لا مفر . وقد يطردها دون حاجة الى قتال ، ودون ضرورة الى الاشتباك مع الامم المتحدة او سواها .

امة واحدة في دولة اتحادية او موحدة ، جيش واحد ، سياسة خارجية واحدة ، مستقلة كل الاستقلال ، تتعاون مع الاصدقاء النزهاء في كل مكان ، وترذل الطامعين والمستغلين ، كل كفيل بالقضاء على اسرائيل، على خنقها في مهدها ، على انحلالها ـ ربما ـ من تلقاء نفسها ...

وهذا ما يعمل له الرئيس عبد الناصر في جد ودأب ، وعناد . انك لن تستطيع رد غريب يقتحم دارك ، وفي غرف الدار ، جماعة يتجاهلون وجود هذا الغريب ، او يمدون ايديهم الى اصدقائه ، او يحاولون ضربة من خلف ...

ومأساة عام ١٩٤٨ التي اسفرت عن ضياع جزء من فلسطين ، ما كانت لتتم لو كان الجسم العربي نقيا سليما متراص الاعضاء . وهي مأساة يجب ان لا تتكرر على نطاق اوسع او اضيق . ولن تتكرر ما دام على مقدرات العرب رجل مقدام لكنه حكيم بقدر ما هو مقدام . رجل يعرف ان البيت الخرب لا يمكن الا ان يكون مأوى لكل شذاذ الافاق ..

انه سيصلح البيت ويقيمه على اسس مكينة ، ويزوده بخير الحراس .. حراس من الشعب العربي كله ، يحسون ان البيت بينهم هم ، لا بيت ملك ، ولا بيت اسرة من الملوك ، ولا بيت طبقة من الطبقات .. بيتهم هم جميعا ، فمن حقهم ومن واجبهم ان يدفعوا عنه الغاصبين ، ويتمتعوا بخيراته ، من بعدهم .

ان الروح الذي يحرك الجمهورية العربية المتحدة ـ وهي اليوم تضم اكثر من نصف العرب ، في المشرق ـ روح مثالي مجرد عن كل انانية ومصلحةخاصة . روح ينبع من صميم الشعب ، من اعماق الجماهير الواعية والكادحة وهو لذلك يجتاح الشعب العربي من شطئان المحيط الى ضفاف الخليج . ولئن قامت في وجهه حتى الان سدود هنا وهناك ، من الانانية والنفعية المرتكزتين الى قوى الاجنبي واموالة ، فذلك عابر زائل . وهذه السدود مهما ظنت نفسها قوية منيعة ، ستنهار امام الضغط الشعبي المندفع اندفاع السيل العرم .

لقد قال الرئيس عبد الناصر في حلب ـ التي شهدت مهرجانا لا يقل روعة عما شهدته دمشق ترحيبا بالبطل ـ ان الجزر الغربي قد انتهى .. وبدأ المد ، مد صاعد ابدا ، لن يقف في وجهه احد .

نعم ، انه مد ظافر ، لانه طبيعي جد طبيعي ، ولن يحتاج الا القوارب المتلكئة ، النائمة ، او المستهترة .. والا الجيف التي لفظت الروح وسط اشرف نضال خاضته الشعوب ، نضال من اجل الحرية والعدل والسلام .

محمد النقاش

* هل تتذوق الادب الروائي الخالد ؟..
* هل تقتني روائع القصص العالمي ؟..
* هل انت ممن يقدسون الحرية ؟..

اذا كنت من هؤلاء فاحجز نسختك من كتاب

ظلام في النهار

الرواية العالمية الفائزة بجائزة احسن واعمق عشر روايات ظهرت حتى الان في اوروبا

تأليف الكاتب العالمي : ارثر كستلر

تصدرها قريبا ـ دار الصراع الفكري ـ بيروت